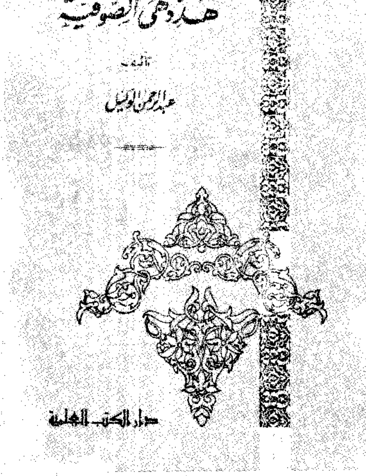


مع الشيخ : عبد الرحمن الوكيل في كتاب

قبل التوحيد

« أما بعد » فما زلت أذكر ، وأنا طالب في معهد طنطا الديني ، ذلك الشيخ الشيبه يقسم لنا ـ وعيناه مخضلتان بالدموع ونبرات صوته أصداء عميقة بعيدة الغور من الشجو الولهان ، والحنين الهائم ، والحرمان الجريح ـ يقسم لنا أن في ضريح عبد العال المجاور لضريح البدوي شعرة من رأس الرسول !! وأنها معين خير ، وفيض بركة ويُمن ، ومطاف آمال ، ومهوى رجاء !! وأذكر أنني حين سمعت حديثه ، يؤكده بقسم غليظ ، شعرت بقلبي ، وكأنما يود أن ينشق عنه الصدر ، ليهفو في صبابته الملهوفة إلى معبد الشعرة يقبلها ، ويكنها في مهجته . بل شعرت كأنما حملت الملائكة إلى بشرى الخلود !! .

وتعال معي أذكرك بأنني كنت أطوف حول صنم البدوي ، حتى إذا مثلت أمام الكوة الصغيرة في وثنه النحاسي البراق ، أنفذت منها يدي ـ في رعشة التقديس ـ حتى ألمس ستر القبر ، ثم أخرجها رويداً رويداً في حرص وحذر بالغين ، وقد ضممت قبضتيهما على .... ؟ على ماذا ؟ كنت أوقن حينئذ أنني أضمهما على بركات سماوية تفيض من روح الله على القبر !! ثم أبسط يدي في جيبي ، ثم أمسح بها وجهي ، رجاء أن أكون ميسر الرزق ، داني قطوف النجاح ، مشرق الوجه بنور الله !!

ولعلك تسألني ، وماذا كان يفعل بكم شيوخكم ؟ كانوا يرفعون في سكرة الحب وذل الخشية أيديهم المعروقة ، يمسحون بها وجوههم ، أو يمشطون لحاهم ومن بين الشفاه الذوابل تنساب هذه الهمهمة ، « رضي الله عنك يا سيد !! » ثم يلتفتون إلينا ، وعلى وجوههم ألَقُ الرضى ناصحين في تأييد وإعجاب ، « كفايه ماخلاص سمعكم السيد !! » .

ثم هداني الله سواء السبيل ، وسلكت بي رعايته مسلك التوحيد والإيمان ، فماذا حدث بعد ؟! تطلعت نفسي الى الماضي الوثني – وهي نهب حسرة حزينة المأساة ، وخميل أفراح معطرة – تَطَلُّعَ الناجي من السعير مازالت في أتونه المتأجج ضحاياه تعسة منكودة جنت على الصوفية ما جنت عليَّ ، وتطلعت إلى الريف الحزين ، يستعبده شيوخ الطرق ، ويغصبون أيتامه ما يُوَصْوِصُ فيهم من رمق خابي الشعاع ، وأرامله ما هُن في حاجة ملهوفة إليه ليسددن خلة . أو يسترن عورة ، ومساكينه من الذبالة المحتضرة من حشاشتهم ·

وتطلعت إلى هؤلاء وأولئك ، وذكرت ما كابدته ، فصرخت موجعاً من هول الفاجعة أحاول إنقاذ الضحايا التعسة · المُغذِّةِ السرى وراء الذئاب الضوارى من الصوفية

وأكتب ما أكتب ، ضارعاً إلى الله وحده أن يمد بالمعونة – فمنه وحده يُستَمد – وأن يتبين لتلك الضحايا المسكينة أنها تتجرع الغِسلين تحسبه رحيقاً ، وتطعم الوزين تظنه فاكهة الخلد ، وتدين بوثنية – هي شر ما ابتدع الشيطان لأوليائه من وثنيات ، وتخالها توحيداً مطيباً بروح الله !!

للصوفية مدد من كل نحلة ودين إلا دين الإسلام ، اللهم إلا حين نظن أن للباطل اللئيم مدداً من الحق الكريم ، وأن للكفر الدنس روحاً من الإيمان الطهور · والصوفية نفسها تبرأ إلا من دين طواغيتها مؤمنة بأنه هو الحق الخالص ·

يقول التلمساني : – وهو من كُهان الصوفية – « القرآن كله شِرْكٌ ، وإنما التوحيد في كلامنا » ، وابن عربي يزعم أن رسول الله أعطاه كتاب فصوص الحكم – وهو دين زندقته – وقال له : « اخرج إلى الناس ينتفعون به – ويقول : فحققت الأمنية كما حَدّه لي رسول الله بلا زيادة ولا نقصان » ثم يقول :

سلوا الصوفية لم انتبذت من المسلمين مكاناً قصياً تسمى فيه المدنسين برجسها صوفيين ، لا مسلمين ، والاسمان متقابلان تقابل الظلام الجائر ، والضوء الباهر ؟ سلوها لم تمقت ما سمى به الله من يعبدونه على بصيرة ، وتجنح الى اسم ما له من دلالة إلا على كفر أو مذلة ؟ سلوها من هم كهان دينها ، وأحبار طقوسها ؟ سلوها لم تورِّث أحقاد طواغيتها على الكتاب والسنة ؟ سلوها لم تفتن الأغرار عن دين الحق ،

فتزعم لهم أن الإسلام شريعة وحقيقة ، تعني بالشريعة ما أوحاه الله إلى رسوله ، وبالأخرى وساوس الأبالسة النافثين لبدع الصوفية ٠

إن الصوفية تنعت ابن عربي بأنه : « الشيخ الأكبر والكبريت الأحمر » وتخر له ساجدة ، والجيلي بأنه : « العارف الرباني والمعدن الصمداني » وابن الفارض بأنه : « سلطان العاشقين » والشعراني بأنه : « الهيكل الصمداني والقطب الرباني » ٠٠ فما أدعوك إذن إلى تلاوة كتب تنقم منها الصوفية دلائل الحق ، وإشراق الهدى ، بل إلى كتب تقدسها الصوفية على اختلاف نوازعهم ، وتباين أهوائهم ، ويجلونها ــ ولا أعدو الصدق إذا قلت يعبدونها ــ ويرونها الأفق الأسمى لنور التوحيد ، والمنبع السلسال لفيوض الربانية !! فإن قرأت شيئاً من تلك الكتب ، فتدبر بعده آية واحدة من كتاب الله ، واقذف بنور الحق الإلهي على دياجير الباطل الصوفي ٠

لقد كفرت الصابئة ، لأنهم عبدوا الكواكب ، وكفرت اليهود ، لأنهم عبدوا العجل ، وكفرت النصارى ، لأنهم عبدوا ثلاثة أقانيم ، وكفرت الجاهلية ، لأنهم عبدوا أصناماً أقاموها لمن مات من أوليائهم ، لتكون مقصد الرجاء ، ومطاف الآمال ، كما كان أصحابها ، وهم ناعمون بالحياة ٠ فماذا تقول الصوفية ، أو بماذا تحكم عليها ، وهي تدعو الى عبادة كل شيء ؟! ألا يقول الجيلي : « إن الحق تعالى من حيث ذاته ، يقتضي ألا يظهر في شيء ، إلا ويعبد ذلك الشيء ، وقد ظهر في ذرات الوجود ؟! » ويزيد ابن عربي الفرية جلاء بقوله : « والعارف المكمل من رأى كل معبود مجلى للحق يُعبد فيه ، ولذلك سموه كلهم إلهاً ، مع اسمه الخاص بحجر ، أو شجر ، أو حيوان ، أو إنسان ، أو كوكب ، أو ملك » ٠

فهل تراني جنحت إلى غُلُوٍ ما حين قلت لك : إن الصوفية استمدت من كل كفر ، ودانت بكل ما دان به الكافرون من قبل ، فكانت هي وحدها تاريخ الوثنية كلها ، وحمأتها منذ ابتدعها إبليس ليضل الكافرين ؟!

إن الصوفية هنا ، وهناك ، وفي كل مكان يتربصون فيه بالإسلام ، يؤمنون بكتبهم إيماناً عنيداً طاغياً يأسر منه في قبضته القاهرة عواطف القلوب ، ومشاعر النفوس وسبحات الخواطر ، وتأملات الفكر ، ويدينون بكل حرف فيها يرمز إلى

أسطورة ، وبكل كلمة تفشى خرافة · فما تناوحت إحساساتهم بالحب إلا لها ، وما فتك بالقلوب أخطبوطهم إلا بها ، وما قتلت عناكبهم ذباب النفوس إلا بلعابها السام !! ··

بيد أنهم حين يلقون المؤمنين ، يقولون رياء ومخادعة ؛ مدسوس !!

حتى اذا خلوا إلى شياطينهم ، قالوا ؛ نفتن المؤمنين !·

وإلا ، فإني أدوِّي بصيحة الحق ، تتحدى الصوفية وطواغيتها أن يجرؤ واحد منهم على القول ؛ إن تلك الكتب مدسوسة !·

أو يستنكر ما تطفح به من كفر ، وليأتنا بأثارة من علم ، أو ظن تدل على أنها دِعيةُ النسب إلى من افتروها !·

[redacted]

ما ألحفت الصوفية في شيء إلحافها في الدعوة إلى اتخاذ شيوخها أرباباً من دون الله ، ففرضت على الدرويش أن يكون وطاءً ذليلًا لشيخه مُستبعَدَ الفكر سليب الارادة كجثة الميت في يد الغاسل ، وجعلت هذه العبودية المتهنة أولى الدلائل على طاعة المريد لشيخه ، وعلى حبه له ، وعلى أن يرقى معارج الوصول إلى حظائر القدس · اسمع إلى طيفور البسطامي يقول ؛ « من لم يكن له أستاذ ، فإمامه الشيطان » وإلى صاحب لطائف المنن يزعم ؛ « من لم يكن له أستاذ يصله بسلسلة الأتباع ، ويكشف له عن قلبه القناع ، فهو في هذا الشأن لقيط لا أب له ، دعيٌّ لا نسب له » وإلى محمد عثمان يقرر آداب المريد مع شيخه ؛ « ومشاهدتك له في كل حال وَرَد عليك أنه بواسطته إليك يا فتى ، ومنها أن تجلس جلوس الصلاة عنده ، وأن تفنى فيه ، وألا تجلس فوق سجادته ، وألا تتوضأ بإبريقه ولا تتكيء على عكازه » ·

[redacted]

كانت الجاهلية في إسفافها الوثني أقل حماقة من الصوفية ، وتَدَبَّرْ ما قصه الله عن الجاهلية وشركها ، تجدهم كانوا يوحدون الله في ربوبيته توحيداً حُرمت حتى من مثله قلوب الصوفية ، إن كانت لهم قلوب !! يقول تعالى ؛ « ٢٣ : ٨٤ ــ ٨٩ **قُلْ : لِمَنْ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إنْ كُنْتُم تَعْلَمون ؟ سَيَقُولُون : لِلَّهِ · قُلْ : أَفَلا تَذَكَّرُون ؟! قُلْ : مَنْ ربُّ السَّمواتِ السَّبع ، وربُّ العَرْشِ العظيم ؟**

سَيقُولون : للهِ . قُلْ : أفَلاَ تتَّقون ؟! قُلْ : مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيءٍ ، وَهُوَ يُجير ولاَ يُجارُ عَلَيه ، إنْ كُنْتُم تَعْلَمُون ؟! سَيَقُولون : للهِ . قُلْ : فَأنَّى تُسْحَرون ؟! » .

هذا دين الجاهلية ولكن الله لعنهم لعناً كبيراً بشركهم ، لأنهم أشركوا بالله في إلهيته ، فتضرعوا إلى غيره بالدعاء .

أما الصـــوفية :

فتدين بالقتلة ، والمجرمين ، وأوغاد الفاحشة أقطاباً يتصرفون في الوجود ، ويسيطرون بقهرهم على سنن الله الكونية ونواميس الوجود التي فطرها الله وحده ، وهو الذي يصرفها وحده ، ويتحكمون في أقدار الله ، فلا ينفذ منها إلا ما يشتهون . فأي الشركين أطغى بغياً ، وأخبث رجساً ؟! لقد وحدت الجاهلية الله في ربوبيته ، وأشركت به في ألوهيته ، أما الصوفية ، فنفتهما عنه ، وأثبتتهما للمفاليك الصعاليك ، بل انحدرت حتى نفت وجود الله الحق ، ونعتته بالعدم الصرف ، أفيمكن أن يقاس إلحادُ الصوفية ، بشرك الجاهلية ؟

[redacted]

في أعياد الوثنية التي يسمونها ، موالد ، وفي معابد الأضرحة التي يسمونها ، مساجد ، وفي كهوف الدراويش ، وقد أتخموا بطون الطواغيت بالسحت !! في تلك الْحَمْآت يقيم الصوفية حانات الرقص ، أو يسمونه الذكر ، فيجلس الشيخ بين صفين من دراويش تعشقهم الرذيلة ، ودرويشات نفرت منهن الفضيلة ثم يصفق بيديه اللامعتين من دسم الحرام إيناناً ببدء الذكر ، ثم يُخرج من شفتيه ومنخريه إسم الله مُلْحِداً في حروفه وفي النطق به !! وغضون جبينه تَهْمِزُ الحياءَ وتَلْمِزُ التقوى ، ومُنشِد القوم يطربهم بالغزل الداعر في ليلى وسعاد ، أو بالدفوف يدق عليها الشيطان ، وبالنايات تصفر فيها الشهوة ، ثم يهب الشيخ ، ويهب معه المريدون ، وثمَّتَ يميلون يَمْنَةً ويَسْرَةً ، مُتَأَوِّدَةً أعطافهم تأود الراقصات يلمحن في أيدي الروّاد دِنَانَ الخمر وفتنة الذهب ، وما هي إلا لحظة ، حتى تُجَنَّ هذه الأجساد بما فيها من رغبات مكبوتة ، مفصحة عن غليلها المحترق بالتأوه المخنث ، والتمايل الخليع ، وبالأصوات المنكرة المبحوحة من عويل الخطيئة والاستغاثة بزينب ، أو نفيسه . لا يريدون زينب الطاهرة ، ولا نفيسة العابدة . وإنما يريدون بهما شيئاً آخر !!

ما هكذا ذكر الرسولُ ربه ، وما هكذا ذكر الصحابة من بعده ربهم ، ما ذكروه باسمه المفرَد ولا ذكروه في ميل وتأوُّد · ما ذكروه بقيادة واحد منهم ينطو، بالاسم مصفقاً ، وينطقون به وراءه · ما ذكروه ، ولهم منشد يغازل ليلى !! ما ذكروه وأصواتهم من ضجيجها تفزع الليل ، وتصك جنباته ، ما ذكروه جزاء مضغة لحم ، أو نفثة « شيشة » !! ما ذكروه بالنايات والطبول والدفوف · ولكنهم ذكروه ، كما علمهم رسوله ، أما من ذَكَرَ الله ذكر الصوفية فهم مشركو الجاهلية « ٨ : ٣٥ **وَمَا كَانَ صَلاَتُهُم عِنْدَ الْبَيْتِ إلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً** » · وكفرةُ اليهودية والمسيحية !!

ما عبادة الصوفية ؟ أهي تلك النذور يحفدون بها إلى الجيف ؟ أهي هذا السجود على عتبات الأصنام دوخها وطء النعال ؟! أهي هذا التقبيل الملهوف العاشق لأحجار الأوثان رجاء سِلْسبيل رحمة منها ومغفرة ؟ أهي هذا التوسل إلى الله بعظام نخرة ، وصفوان أملس ، وخشب عافه السوس من طول ما طعم منه ؟! أهي هذا الدعاء العريض بالهامدين في القبور ، ينشدون منهم مدد الحياة ، وروح الخلود ؟! أهي تلك الأوراد الشركية ينعق بها الصوفية تحت سجوات ليلهم المعربد ، وشفوف السحر الراقص ، في هياكل الطواغيت ؟! أهي هذا الحلف بالقبور والهامدين فيها ، وجعل الحلف بالله عرضة للفرار من ذنب ، أو جريرة ؟!

ذلك هو الجانب العملى من التصوف في ذكره وزهده وعبادته ، أتراه يصلح لهداية الإنسانية ، وقيادتها إلى مُثُلها العليا ؟ أم تراه يفتك بها فتك السل الدفين بالصدر الرقيق الحزين ؟!

أيها التائهون في كهوف الظلمات !! عودوا إلى الحق من هَدْى الله الحق ، ثم انظروا حواليكم حين تنيبون إلى الله ، وتعملون بهديه · ألا ترون الإسلامَ رفَّافَ الألوية في عزة على قمة الوجود الإنساني كله ، وعلى الذرى السامقات من كل مناحيه !؟ ألا ترون هداه يناسم في رَحْمةٍ شرقه وغربه ؟ ألا ترون الحياة فياضة الصفاء والبشر والخير ، تنعم بالسلام الوديع الرفيق الآمن ؟! ألا ترون القلوب ينابيع ثَرَّةً للإخاء والحب والإيثار ؟ ألا ترون الكون كله محاريب إيمان وحِمى حَقٍ وعدل ،

ومغاني سلام كريم ؟! لا تعجبوا إذا رأيتم ذلك كله فإنه وعد الله العلي الكبير القدير، « ٢٤ : ٥٥ **وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمنُوا مِنْكُم ، وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، لَيَسْتَخْلِفَنَّهم فِي الأَرضِ كما استَخلفَ الَّذِين مِنْ قَبلِهم ، وليُمَكِّنَنَّ لَهُم دِينهم الَّذِي ارتضَى لَهُم ، وليُبَدلنهم مِنْ بَعْدِ خَوفِهم أمناً ، يَعبُدونني ، لاَ يُشرِكُون بِي شَيئاً ، ومَنْ كَفَر بَعدَ ذَلِكَ ، فأُولَئِكَ هُم الفَاسِقُون** » كل هذا يحققه الله للمسلمين إذا هم أخلصوا لله وحده دينهم ، وَوَعْدُ الله لن يتخلف ، لأنه الكريم القدير ، وقد حقق الله سبحانه وعده لمحمد صلى الله عليه وسلم ، ولأصحاب محمد ، ولكل من سلك بالحق سبيل محمد ، وسيحققه لكم إذا اتبعتم سبيله .

عزيزي الشاب الوفي !

إن كل تابع له اتصال مباشر بمرجعه وكلما قوي شأنه بتابعه عظم اتصاله لهذا « المثل » نجد أنه مما فرضه الله علينا اتصالا جوهريا خمس مرات في اليوم والليلة مجتمعين عند الاتصال ولو في المعارك القتالية إلا لمن لم يحصل له ذلك فيتصل بمفرده كما أن الاتصال يكون عند العزم على عمل شيء تخفى نتيجته من الأحوال الدنيوية بما يسمى صلاة الاستخارة والاتصال من العبد في الأرض إلى مالك الملك فوق السماء هو في هذه الصلاة التي خففت من خمسين صلاة إلى خمس صلاوات وجعل أجر الخمسين في الخمس الصلاوات المفروضة .

تناجي فيها ربك وتطلب منه تحقيق آمالك وأن يحفظك من عقابه . وفي ترك فريضة بلا عذر شرعي نقض للعهد وكفر بدين الله وتعرض لأشد العقاب قال تعالى (**إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً**) وقال تعالى (**مَاسَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ**) وقال صلى الله عليه وسلم (**العَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلاَةُ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ**) .

أخي كفى ما أمضيته من الغفلة فتدارك مع ربك لتأمن على حياتك وفي آخرتك (**الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِى كُنْتُمْ تُوعَدُونَ**) وهذه سر العظمة والمناجاة لله تعالى من الأرض إلى الله فوق السماء .